المصير المشترك

خريستو المرّ

نشأ الإسلام كدين في منطقة الجزيرة العربيّة، وامتدّ مع توسّعه الجغرافيّ في ما يُدعى اليوم بالعالم العربيّ. وانتشر من دون احتلال عسكريّ حول العالم. فإذا بأندونيسيا، البلد الأكبر من حيث عدد المسلمين، تقع خارج المنطقة العربيّة. وإن كان يمكن مقاربة العلاقات بين المسيحيّين والمسلمين من زوايا مختلفة، فإنّ هذه المقالة ستقتصر على النظر إلى هذه العلاقات في العالم العربيّ. وسنسمّي البلاد في العالم العربيّ بلداناً عربيّةً ليس من ناحية منشأ الناس وأصولهم وانتماء جدودهم إلى القبائل العربيّة في الجزيرة العربيّة (فهذا غير واقعيّ)، بل من ناحية أنّه تجمع هذه البلاد أرضيّة ثقافيّة مشتركة قائمة على أبعاد عدّة أهمّها ربّما هي اللغة الواحدة، والاستمتاع بألوان موسيقيّة مشتركة (فيروز وأمّ كلثوم مثلاً)، وتديّن الغالبيّة الذي يطبع الثقافة بعامّة، وطرق مقاربة العالم التقليديّة الشعبيّة، والمصير المشترك الذي نراه واحداً وهو ما سنركّز عليه في ما يأتي.

الأزمات الداخليّة

تَجمع الناسَ في البلدان العربيّة أزمات داخليّة مشتركة. فجميعها على تنوّع أشكال الحكم فيها تعاني من حكم الشخص الواحد (باستثناء لبنان وتونس حاليًّا) وامتطاء مجموعة صغيرة من السكّان أحصنة المال أو النسب أو السلطة العسكريّة (أي مجموعة أوليغارشيّة) للامساك بمقاليد الحكم والاقتصاد ونهب الثروات الوطنيّة – وهي تقوم بذلك بالتعاون والتكافل مع حماة أوروبيّين وشمال أميركيّين. وتكون النتيجة نهب ثروات البلاد أو الاستيلاء عليها، بينما تعاني نسب واسعة من السكّان، حتّى في دول الخليج من الفقر (الإمارات ليست استثناءً في هذا المضمار، إذ ينتشر فيها الفقر على الرغم من انعدام الإحصائيات الرسميّة المتّصلة بهذا الموضوع). وبحسب تقرير صادر عن الوكالة السويديّة للتنمية الدوليّة (٢٠١٩)، بلغ معدّل الفقر (أقلّ من ٥.٥ دولار في اليوم) في العالم العربيّ حوالى ٣٨٪. وفي العام ٢٠١٥، عانى سكّان البلدان المتأثّرة بالصراعات في المنطقة من معدّل فقر مرتفع بشكل كبير وملحوظ: تونس ٢٠٪، الأردنّ ٢٤.٥٪، المغرب ٣٠٪، العراق ٥٦٪، مصر ٦١٪، سوريا ٨٣,٤٪، اليمن ٩١,٣٪ من السكّان. ويقدَّر أنّ ٨٠٪ من اللبنانيّين يعيشون في فقر و٣٦٪ تحت خط الفقر المدقع، في حين أنّ ٩٠٪ من اللاجئين السوريّين في لبنان لا يستطيعون تغطية احتياجاتهم الأساسيّة (إحصائيّات الاتّحاد الأوروبيّ).

ويقوم الحماة الخارجيّون بالسيطرة بواسطة القواعد العسكريّة داخل البلد (كما في بلدان الجزيرة العربيّة) وجيش من الشركات والمستشارين وممثّليهم في البنك الدوليّ وصندوق النقد الدوليّ (في الدول الفقيرة)، وعبر تهديدهم بواسطة «أكبر حاملة طائرات أميركيّة في العالم لا يمكن إغراقها، ولا تحمل حتّى جنديّاً أميركيّاً واحداً، وتقع في منطقة حسّاسة للأمن القوميّ الأميركيّ»، أي إسرائيل كما وصفها بدقّة وزير الخارجيّة الأميركيّ ألكسندر هيغ بين العامين ١٩٨١ و١٩٨٢.

التهديدات الخارجيّة

هذا يضعنا أمام التهديدات الخارجيّة التي يعاني منها سكّان البلاد العربيّة. ولكي يعي سكّان هذه المنطقة أحوالهم، يجب أن يضعوا نصب أعينهم، وفي عقولهم، أمراً أساسيّاً مغيّباً عن النقاش وعن الإعلام وعن التداول الشعبيّ، ألا وهو الاستعمار. ينبغي أن تُعاد هذه الكلمة إلى التداول في الوعي وفي الحوارات الشعبيّة لكي نفهم على الأقلّ أوضاعنا تماماً، وعندها يمكن القيام بتقييم مناسب للواقع ووضع رؤية مناسبة للخروج منه.

لقد بيّنا في مقالتنا الأولى في العدد صفر من مجلّة تيلوس كيف أنّه لا تمرّ بضعة سنوات حتّى يشنّ الاستعمار حرباً علينا. ونقوم، هنا، بتحديث للجدول عبر إضافة حروب «إسرائيليّة» على غزّة. إنّ الاستعمار الشمال-أميركيّ والأوروبيّ يرى في النفط والغاز مواداً أوّليّةً يريد أن يحصل عليها بالأثمان التي يريدها. ويرى في الثروات الوطنيّة مجالاً لمراكمة أرباح شركاته. لذا، هو يشنّ إمّا مباشرة، وإمّا بواسطة «إسرائيل» (ومؤخّراً بواسطة الدول العربيّة التي قامت بالتطبيع الوقح مع دولة الاحتلال والاضطهاد والتمييز العرقيّ الصهيونيّة)، الحرب تلو الحرب على شعوب الدول العربيّة في محاولة واضحة (ومكرّرة في تاريخ الاستعمار) لإخضاع الشعوب الأصليّة للمنطقة من أجل نهب ثرواتها واحتلال أراضيها (وطرد سكّانها أيضاً في فلسطين).

رقم	العام	عدد السنوات الذي يفصلها عن الحرب السابقة	البلد المعتدي	البلد المعتدى عليه
١	١٧٩٨		فرنسا	مصر
٢	١٨٣٠	٣٢	فرنسا	الجزائر
٣	١٨٨٢	٥٢	بريطانيا	مصر
٤	١٩٠٣	٢١	فرنسا	تونس
٥	١٩١١	٨	فرنسا	المغرب
٦	١٩١١	٠	إيطاليا	ليبيا
٧	١٩١٩	٨	فرنسا	لبنان
٨	١٩١٩	٠	بريطانيا	فلسطين
٩	١٩٢٠	١	فرنسا	سوريا
١٠	١٩٣٦	١٦	بريطانيا – ثورة الفلسطينيّين	فلسطين
١١	١٩٤٧	١١	دولة إسرائيل الاستيطانيّة - بريطانيا	فلسطين
١٢	١٩٥٦	٩	فرنسا – بريطانيا- دولة إسرائيل الاستيطانيّة	مصر
١٣	١٩٦٢	٦	حرب أهليّة (بريطانيا، السعوديّة، مصر، الأردن)	اليمن
١٤	١٩٦٧	٥	دولة اسرائيل الاستيطانيّة	فلسطين (الضفّة الغربية وغزّة)، مصر، سوريا
١٥	١٩٧٥	٨	حرب أهليّة (تدخّل إقليميّ ودوليّ)	لبنان
١٦	١٩٧٨	٣	دولة اسرائيل الاستيطانيّة	لبنان
١٧	١٩٨٠ – ١٩٨٨	٢	العراق – إيران	إيران - العراق
١٨	١٩٨٢	٢	دولة إسرائيل الاستيطانيّة	لبنان
١٩	١٩٩٠	٨	العراق	الكويت
٢٠	١٩٩١	١	الولايات المتّحدة الأميركيّة	العراق
٢١	١٩٩١	٠	حرب أهليّة	الجزائر
٢٢	٢٠٠٣	١٢	الولايات المتّحدة الأميركيّة	العراق

٢٣	٢٠٠٦	٣	دولة إسرائيل الاستيطانيّة	لبنان
٢٤	٢٠٠٨	٢	دولة إسرائيل الاستيطانيّة	غزّة
٢٥	٢٠١١	٣	الولايات المتّحدة – فرنسا – بريطانيا – حلف شمال الأطلسيّ – الإمارات	ليبيا
٢٥	٢٠١١	٠	الولايات المتّحدة، السعوديّة، إيران، الإمارات العربيّة المتّحدة، الأردنّ، لبنان، العراق، دولة إسرائيل الاستيطانيّة	سوريا
	٢٠١٢	١	دولة إسرائيل الاستيطانيّة	غزّة
	٢٠١٤	٢	دولة إسرائيل الاستيطانيّة	غزّة
٢٦	٢٠١٥	٤	السعوديّة، الإمارات العربيّة المتّحدة، إيران، الولايات المتّحدة	اليمن
	٢٠٢١	٦	دولة إسرائيل الاستيطانيّة	غزّة
٢٧	٢٠٢٣	٢	دولة إسرائيل الاستيطانيّة	غزّة، لبنان

جدول رقم ١: أهمّ الغزوات والحروب التي شُنّت على (وفي) العالم العربيّ منذ حملة نابليون بونابرت على مصر العام ١٧٩٨

إنّ الاستعمار ينظر إلى العالم العربيّ ككلّ يجب تفكيكه لكي ينهبه من ناحية، ولكي لا تقوم له قائمة كوحدة متناسقة يمكنها أن تشكّل تهديداً لمشاريع رأسماله في نهب الأرض ومراكمة الأرباح والسلطة.

المسعى إلى الوحدة في التنوّع

إنّ وعي هذين التهديدين، الخارجيّ الاستعماريّ الذي يريد إخضاع شعوبنا ونهبها، والاستغلاليّ القمعيّ الداخليّ الذي يريد الأمر ذاته (مع الفارق أنّ معظم النهب سيكون من حصّة الاستعمار)، هو عنصر أساسيّ في العلاقات بين المسيحيّين والمسلمين في البلاد العربيّة. فشعوب هذه المنطقة مهما كانت أديانهم وعقائدهم وثقافاتهم المحلّية يتعرّضون للتهديدين ذاتهما، ومصيرهم مشترك من حيث الربح أو الخسارة، أي من حيث خبرة الحياة المفروضة عليهما. فبالإضافة إلى القاعدة اللغويّة والثقافيّة الشعبيّة والتقاليد المشتركة، هناك قاعدة المصير المشترك التي تساهم في توحيد الحياة المشتركة والرؤى المشتركة لغد آخر خالٍ من الاستغلال والقمع، وللتعاون العمليّ، المتنوّع الوسائل بالضرورة، من أجل الوصول إلى تحقيق التحرّر. قد يختلف الناس على ماهيّة شكل الغاية الأخيرة، أي نظام الحكم الذي ينبغي تأسيسه. لذا، لا بدّ من مبادئ أخلاقيّة أساسيّة ترعى وحدة السعي إلى التحرّر المشترك.

المبدأ الأخلاقيّ الأساسيّ، في رأيي، هو أنّه لا تجوز ممارسة أيّ قمع داخليٍّ أو خارجيٍّ ولذا ينبغي تأسيس دول تحترم الحرّية وتنبذ القمع بجميع أشكاله. ويمكن نحت هذا المبدأ بناءً على مبادئ إيمانيّة في الدينين الإسلاميّ والمسيحيّ كالحرّية والشورى واحترام الخيارات الإيمانيّة للناس.

لكن أيضاً ينبغي بناء دُوَل تنتفي منها بُنى الاستغلال، وتُحترم فيها حقوق الناس في الحياة بكرامة، أي حقوقهم الإنسانيّة في المسكن والصحّة والتعليم المجانيّ وغير ذلك

من حقوق الإنسان الاقتصاديّة. وهنا يمكن أن نعبّ من تاريخ طويل لمبادئ التكافل والمشاركة في الدينين لتأكيد هذا المبدأ.

وأخيراً، ينبغي أن تحترم تلك الدول تنوّع الخبرات الإنسانيّة، بحيث يجري احترام الثقافات المحلّيّة المتنوّعة والامتناع عن التضييق عليها، بل حمايتها لا انطلاقاً من ضرورة الحفاظ على مبدأ نبذ القمع فحسب، بل أيضاً لأنّ التنوّع غنى ما دام يأتي ضمن الوحدة ولا يدعو إلى التفكّك. ويمكن البناء على مبدأ إيمانيٍّ قائم في الديانتين أنّ التنوّع بين الناس هو تعبير عن إرادة إلهيّة على المؤمنين بالله أن يحترموها.

لئن كان حلّ الدولة العربيّة الواحدة غير واقعيّ في سياقنا التاريخيّ الحاليّ، إلاّ أنّ الواقعيّ في المستقبل هو بناء عالم عربيٍّ يمتاز بالتعاون بين دوله على شاكلة أميركا اللاتينيّة أو الاتّحاد الأوروبيّ.

خلاصة

إنّ العلاقات المسيحيّة الإسلاميّة الملموسة في العالم العربيّ مرتبطة بالمصير المشترك للمسيحيّين والمسلمين في هذه البقعة من الأرض. وإن نظرنا - كما ينبغي لنا في المطاف الأخير- إلى خارج العالم العربيّ، فإنّ ما يجمعنا جميعاً كبشر هو مصيرنا الواحد على هذه الأرض والتحدّيات المشتركة من قمع واستغلال، لكن وبشكل طارئ هناك تحدّي الاحتباس الحراريّ وتهديد إفناء الحياة الذي يدفعنا إليه نظام رأسماليّ لا يهتمّ إلاّ بزيادة استهلاك الطبيعة من أجل تحقيق نموّ دائم في الإنتاج (لأمور نحتاجها وأخرى لا نحتاجها) سيودي بالكوكب إلى الخراب. وكما رأينا ظاهرة التعاضد البشريّ عبر العالم خلال حرب الإبادة في غزّة حاليّاً، يمكننا أن نتعاضد على الخير ونتعاون على البِرّ عوضاً عن التعاون على الإثم والعدوان (المائدة ٢) لئلاّ تفنى الحياة.

مراجع الإحصائيّات

إحصائيّات الوكالة السويديّة للتنمية الدوليّة

https://cdn.sida.se/app/uploads/2020/12/01095838/mena-multidimensional-poverty-analysis.pdf

إحصائيّات الاتّحاد الأوروبيّ

https://neighbourhood-enlargement.ec.europa.eu/news/lebanon-eu60-million-humanitarian-aid-most-vulnerable-2023-03-30_en .